"العقيدة الغزاوية"

فكرٌ وجهادٌ & علمٌ وعملٌ

بلال محمد خير خليفة

كانت وما زالت القضية الفلسطينية محور اهتمام المسلمين عامة، وأهل فلسطين خاصة، وشاء القدر أن يجعل مدينة غزة قلعة المقاومة الفلسطينية، وعاصمة القضية المقدسة، ومقبرة للمقاتلين المحتلين، وتاريخاً لا يُنسى في ذاكرة الشرق والغرب، كما أنها أخذت على عاتقها تحرير المسجد الأقصى من رجس الصهاينة المحتلين، لذلك أصبحت مدينة غزة حياة كل مسلم، ومقبرة كل عدو غاشم.

استيقظ العالم صباح السابع من أكتوبر عام 2023 على معركة "طوفان الأقصى" التي أطلقتها المقاومة الفلسطينية في أراضي مدينة غزة، استطاعت المقاومة ضرب المدن المحتلة في الأراضي الفلسطينية، واحتجاز عدد كبير من المحتلين.

يمكننا القول إن طوفان الأقصى كان زلزالاً كبيراً للاحتلال الإسرائيلي، أثبتت المقاومة من خلاله فشل الأجهزة الأمنية والاستخباراتية لدى الاحتلال، كما أنها أثبتت للعالم قدرتها العالية في استهداف جيش يخال نفسه من أقوى جيوش العالم.

سطّرت المقاومة الإسلامية إنجازات ونجاحات كبيرة في أكثر من منحى، وذلك كأسر عدد كبير من الجنود والمحتلين، وقصف المدن المحتلة وعاصمة الكيان الصهيوني "تل أبيب"، وتشريد المستوطنين من منازلهم، واستهداف المطارات المدنية والعسكرية.

الحديث عن الإنجازات يطول، إلا أن خلفية تلك الإنجازات هي ما يجب الوقوف عليها، حيث أن تلك الإنجازات لم تكن عملاً عسكرياً فحسب، بل هي صفحات من كتاب كبير كُتب فيه السر واللغز بما يخص طوفان الأقصى، لأن طوفان الأقصى هي معركة عسكرية تسبقها معركة دينية وفكرية وعقائدية، تبناها الشعب الفلسطيني عموماً، وأهل غزة خصوصاً، فكانت المعركة محاضرة عرف العالم من خلالها أهل غزة، دينياً وعقائدياً، وعلمياً وقوة وتطوراً، والأهم من ذلك هو ما علمه أهل غزة أن لا معين وناصر وصديق لهم إلا الله عز وجل.

كمواطن سوري، أسيح في الفكر دوماً وأقارن بين قضية وطني وشعبي، وبين قضية الشعب الفلسطيني، أجد فروقاً كثيرة وكبيرة بين القضيتين، أردت الحديث عن القضية الفلسطينية، وبعد ذلك سأكون قادراً على تحديد الفروق والأسباب التي امتازت بها القضية الفلسطينية عن السورية، وهذا ما دفعني للحديث عن معركة "طوفان الأقصى" بصفحات وجيزة، احترت كثيراً في عنونة ما أكتبه، فوقفت طويلاً عند العقيدة الإسلامية التي يحملها الشعب الفلسطيني، تلك العقيدة التي صنعت منه جيشاً عظيماً في ميادين العلم والعمل والكفاح، كما أن غزة أخذت صدى واسعاً في العالم العربي والغربي، وهي حاضنة تلك الشعب العظيم، فكان العنوان "العقيدة الغزاوية"، الذي جمعتُ فيه بين العقيدة التي يحتضنها الشعب، وبين المدينة التي تحتضن ذلك الشعب.

إن الإنجازات التي حققتها معركة طوفان الأقصى، والعدوان الذي لقيه شعب غزة وصبره عليه، يعكس العقيدة التي يحملها هذا الشعب العظيم، أساسها الإيمان بالله تعالى، ومعينها الجهاد في سبيل الله للدفاع عن أرضه وعرضه، ولتحرير فلسطين والمسجد الأقصى من اليهود المحتلين.

أظهرت معركة "طوفان الأقصى" القدرة العسكرية التي يتملكها رجال المقاومة الإسلامية في غزة، وبلا شك إن هذه القوة العسكرية يسبقها قوة علمية واستراتيجية وصناعية ودفاعية كانت سبباً في إظهار القدرات العسكرية للمقاومة، والأعظم من ذلك القوة الفكرية التي نشأ عليها الشعب عموماً، ورجال المقاومة خصوصاً، فالبناء العقائدي والفكري هو أساس مشروع المقاومة الإسلامية في الأراضي الفلسطينية وغزة تحديداً، ورغم الحصار الذي تعيشه مدينة غزة منذ عشرات السنين، لم يألوا جهداً في إعداد جيل صلب أكثر من سابقه، لأنه يُخشى على القضية من ضياعها بين الأجيال مع مرور الزمن وانتشار الشعب الفلسطيني في مختلف بقاع الأرض، فكانت غزة هي مركز إعداد القادة والمجاهدين والعلماء، بالإضافة إلى التطور في الصناعة العسكرية والدفاعية بحكم الحصار المطبق عليها، وعدم اتكالها الكامل على أي دعم خارجي.

يبلغ عدد سكان مدينة غزة أكثر من 2 مليون نسمة، وبحكم الحصار الذي تعيشه استقلت عن الأراضي الفلسطينية تماماً، وبدأت بالاعتماد على نفسها شيئاً فشيئاً، فأسست الجامعات والمدارس والمعامل، وأولت اهتماماً بالغاً بالتعليم الجامعي وما قبله، فعملت على إعداد الكوادر العلمية والأكاديمية من أبناء غزة نفسها.

لم يكن العالم على اطلاع بحال مدينة غزة، يظنها البعض مدينة نائية محاصرة يسيطر عليها الفقر والجهل، بينما يظنها البعض الآخر مدينة تشهد صراعات ونزاعات لن يطول أمد الحياة فيها، إلى أن جاءت معركة طوفان الأقصى، نفضت الغبار عن عيون وعقول العالم بأسره، أدهشت المقاومة أهل غزة قبل أن تدهش عدوها، عرّفت العالم بغزة وأهلها، برجالها وصناعاتها، بكوادرها الطبية والعلمية والأكاديمية.

لعبت وسائل الإعلام دوراً كبيراً في تسليط الضوء على الأحداث العدوانية التي شهدتها مدينة غزة بعد معركة طوفان الأقصى، وعلى سبيل المثال أظهرت غزة العدد الكبير من المستشفيات والمراكز الصحية التي كانت تعمل في غزة، والمجمعات الطبية التي كانت تضم جميع التخصصات، فكان أمراً مدهشاً أن تكون مدينة غزة تحتوي على عدد من المشافي المجهزة بأفضل المعدات الطبية، والتي كانت تخدم أهل غزة في جميع المجالات والتخصصات الطبية، حتى أن مستشفيات المدينة كانت تلبي جميع حاجات المرضى والعمليات الجراحية، وهذا يثبت لنا القدرة العلمية التي يمتلكها القطاع الصحي من أطباء متخصصين، وكوادر علمية وأكاديمية تشرف على كليات الطب المتواجدة في مدينة غزة.

الجانب الآخر الذي أظهرته معركة طوفان الأقصى هو القدرة العسكرية والصناعية والدفاعية التي تمتلكها مدينة غزة، مع وصول جزء قليل من الدعم العسكري عبر طرق مختلفة، لكن معظم القدرات العسكرية كانت من صنع وإنتاج حركة المقاومة الإسلامية في غزة، حيث استطاعت استهداف المدن الفلسطينية المحتلة والتي تبعد مسافات طويلة عن غزة، بالإضافة إلى قتال العدو عند اقتحامه لمدينة غزة، والعمليات النوعية التي قامت بها المقاومة أثناء مواجهتها لقوات الاحتلال.

الجانب الأكثر دهشة في غزة، هو شبكة الأنفاق التي تربط شمال غزة بغربها، وجنوبها بشمالها، يمكن اعتبارها النسخة الثانية لمدينة غزة تحت الأرض، وهذا ما اعترف به الاحتلال الإسرائيلي عن شبكات الأنفاق المعقدة في غزة وكثرتها، مع تفاجئ العدو بعدة فتحات ظنها أنها مداخل للأنفاق وإذ به يجدها فتحة وهمية ملغومة كانت مقبرة لكل من دخلها.

يمكن لكل من يشاهد أخبار مدينة غزة أن يستنتج بنفسه عظمة تلك المدينة وما يدور فيها، وأبسط مثال على ذلك هو قدرة رجال المقاومة استهداف قوات الاحتلال من وسط أماكن تجمّعهم، وهنا لا بد من الحديث عن القوة الإعلامية التي امتلكها رجال المقاومة، وتغطية جزء من المعارك والعمليات العسكرية الدائرة بين المقاومة والاحتلال، حيث يتم تصوير وتسجيل الكثير من المواقف العظيمة التي سطرها رجال المقاومة.

كانت وسائل الإعلام الدولية والمحلية تنشغل بالإصدارات الإعلامية التي تبثها كتائب المقاومة الإسلامية في غزة، والتي لا تترك مجالاً للشك لأنها تنقل تسجيلاً مرئياً للصورة القبلية والبعدية أثناء تنفيذ العملية العسكرية التي تقوم بها المقاومة، إضافة للتسجيلات التي تعرض واقع الأسرى ومناشداتهم، فكان الجانب الإعلامي من أعظم جوانب معركة طوفان الأقصى.

نعود لموضوعنا وهو "**العقيدة الغزاوية**"، لنتحدث عما تتضمنه هذه العقيدة من أسس وركائز كانت سبباً في صنع رجال يذكرهم التاريخ، وهذه العقيدة التي ترسخت في صدور أهل غزة، فكانت عقيدة فكر وجهاد وعلم وعمل، منذ عشرات السنين إلى معركة طوفان الأقصى، من أهم تلك العوامل التي امتازت بها غزة ورجالها:

1. دور العلماء في تأسيس حماس

تأسست حركة المقاومة الإسلامية عام 1987 في قطاع غزة، بقيادة الشيخ الشهيد أحمد ياسين، عمل مدرساً للغة العربية والتربية الإسلامية عقب حصوله على شهادة الثانوية العامة. كما عمل خطيباً في مساجد غزة، ورئيساً لمؤسسة خيرية تأسست في سبعينيات القرن الماضي باسم المجمع الإسلامي، كما ساهم عام 1978 في تأسيس "الجامعة الإسلامية" بغزة، ومن جملة المؤسسين لحركة المقاومة الإسلامية الدكتور عبد العزيز الرنتيسي، والشيخ صلاح شحادة، والدكتور إبراهيم اليازوري، والمهندس عيسى النشار، ومحمد شمعة وعبد الفتاح دخان.

حظيت مدينة غزة بكوكبة كبيرة من رجال الفكر والعلم، نشأوا فيها، وقادوا فيها المسيرة العلمية والدعوية لأهل غزة، إلى أن أسسوا حركة إسلامية لمقاومة الاحتلال الصهيوني، والدفاع عن الشعب الفلسطيني ومقدسات الإسلام والمسلمين.

نشير هنا إلى أمر مهم في مسألة قيادة القضايا الوطنية، وهو أن يقود القضية كوكبة علمية وفكرية وشخصيات بارزة ترشحها وتصنعها أبناء القضية، خلافاً للقضايا التي يترأسها خونة وعملاء لا رضاً للشعب بقيادتهم.

2. قيادة القضية من داخل الأرض لا من خارجها

صنعت غزة رجال المقاومة من أبنائها، ومكثوا في أرضها يدافعون عنها ويتكلمون باسمها، وهذا ما أعطاهم الشرعية الكاملة من أهل غزة، فكانوا هم والشعب على قلب واحد، وهدف واحد، ومشروع واحد، تطور الأمر بعد سنوات من تأسيس حماس ليتم تعيين ممثلين لها خارج غزة في مختلف الدول العربية، لكن هذا الأمر لم يؤثر سلباً على قيادة الحركة من داخل أرض غزة، فبقيت القيادة في ميدان القضية، والذين في الخارج هم ممثلون يتبعون للقيادة المركزية، ولو افترضنا انتقال القيادة لخارج مدينة غزة، لحال الأمر بالقيادة أن تصبح رهينة بيد الأنظمة الدولية، لذا كانت القيادة من قلب مدينة غزة، وهذا ما لعب دوراً كبيراً في الحفاظ على قوة الحركة كونها تعتمد على حضورها الداخلي أكثر من الخارجي.

3. الاكتفاء الذاتي في الميادين العلمية

عملت غزة على إعداد وتأهيل كوادر علمية في كافة التخصصات والمجالات، أنشأت جامعات شاملة لكافة التخصصات العلمية من طب وهندسة وعلوم فنية وتطبيقية واجتماعية، وشجعت المجتمع على العلم والتعلم، واتباع أقوى المناهج العلمية في التدريس الجامعي، كما أولت اهتماماً في المجال الطبي كونه الأكثر حاجة في مواجهة عدوان الكيان الصهيوني، بذلك استطاعت غزة أن تصنع رجال علم وعمل في جميع التخصصات العلمية، ومعركة طوفان الأقصى أظهرت للعالم قوتها في الكوادر الطبية العاملة في المستشفيات بتخصصات متعددة، وأنها قادرة على تلبية حاجات جميع المواطنين في حال توفرت المواد الطبية الأولية والمعدات اللازمة، كما أظهرت طوفان الأقصى القدرة العسكرية والصناعية والدفاعية التي تمتلكها المقاومة، وكل ذلك يعود إلى الجامعات التي خرّجت وهيّأت تلك الكوادر العاملة في مختلف ميادين الحياة، ولو كانت غزة تعتمد على الكفاءات في الخارج لما استطاعت التقدم والتطور في المجال العلمي والطبي والعسكري والصناعي، لأن الذي في الخارج سيكون رهينة بيد الأنظمة الدولية التي كانت وما زالت تقف في وجه القضية الفلسطينية.

4. بناء المجتمع عقائدياً وفكرياً

كان وما زال للعلماء الدور الأكبر في قيادة المجتمع قيادة صحيحة على نهج الإسلام، يعود الدور الأكبر للشيخ الشهيد أحمد ياسين المعلم الأكبر لأهل غزة، الذي جعل المساجد منبراً للعلم والدعوة والجهاد، واشتهرت غزة بالتعليم المسجدي الذي يؤسس الإنسان دينياً وعقائدياً وفكرياً، كما كانت وما زالت غزة تخرج المئات من حفظة القرآن الكريم سنوياً من الذكور، والإناث، والشيوخ، والنساء.

كانت القضية الفلسطينية هي قضية دينية وعقائدية لا مسألة سياسية عند الشعب الفلسطيني عموماً، وأهل غزة خصوصاً، كانت القضية درساً في كل مسجد وكل مدرسة وفي كل جامعة، وكان عنوان ذلك الدرس "النصر أو الشهادة" في أرض غزة، مع التمسك بالأرض والبقاء فيها حتى تحقيق النصر أو الشهادة، فهم يريدون غزة مكاناً لفرحهم بالنصر، أو مقبرة لهم حين استشهادهم.

5. تسخير الدعم الإنساني لمؤسسات الشعب لا للمصالح الشخصية

ساهمت العديد من الدول العربية والغربية في دعم قطاع غزة في الأعوام الماضية، بمختلف المجالات الإنسانية والخدمية، وعلى صغر قطاع غزة فإنها نجحت في تأسيس المرافق الخدمية، من وزارات ومديريات وإدارات تعنى بالعمل الخدمي للمواطنين، وخير مثال لذلك القطاع الصحي في غزة، حيث تلقى دعماً كبيراً في الأعوام الماضية سواء بتأسيس مستشفيات جديدة من قبل الدول العربية والغربية، أو بتجهيز تلك المشافي بكافة الأقسام اللازمة والمستلزمات الضرورية، كما حرصت المؤسسات المدنية في غزة على توظيف هذا الدعم لصالح الشعب، وتوجيه المنظمات والدول الداعمة لتلبية ما يحتاجه الشعب من خدمات إنسانية وغيرها.

قصدنا من ذلك هو المركزية في إدارة المنطقة بمؤسسات مختلفة لكل منها مجال وتخصص، تدير الدعم الخارجي وتطرح على الداعمين اللوازم، كما تقترح عليه مشاريع عديدة تهدف لخدمة مصالح الشعب.

كما ذكرنا سابقاً، القطاع الصحي خير مثال عن غزة وإدارتها، ولولا استقلال وزارة الصحة وتفردها بإدارة الملف الصحي في القطاع لما استطاعت أن تستمر عدة أشهر في تقديم الخدمات الصحية والطبية للمواطنين بعد انطلاق معركة طوفان الأقصى.

6. إدارة محلية مدنية لا عسكرية

على الرغم من قوة الحركة الإسلامية في غزة وشعبيتها، إلا أنها فصلت بين العمل العسكري والمدني والمحلي، حيث ساهمت الحركة في إعداد حكومة محلية مدنية تدير شؤون غزة بكافة المجالات، من وزارة للتربية والتعليم والداخلية والصحة وغيرها، وهذا يعني أن القوة العسكرية لا يمكن أن تدير كافة المؤسسات، بل تهتم بالجانب العسكري والصناعي وإعداد المقاتلين وتطوير الصناعات والدفاعات، بل يقع على عاتقها توفير الأمن والسلامة للشعب لكي يتمكن من العيش والحياة، بوجود مؤسسات متخصصة ترعى مصالح الشعب في شتى المجالات.

الأهم من ذلك هو احترام المؤسسة العسكرية لقرارات المؤسسات الأخرى المتخصصة في مجالات مختلفة، ومساندة الإدارات المحلية في إدارتها، وتقديم مصلحة الشعب والقضية على المصالح الشخصية.

7. القضية والشعب أولاً

كانت وما زالت القضية الفلسطينية عقيدة في قلب الشعب الفلسطيني عموماً، وأهل غزة خصوصاً، وانتصار قضية الشعب هو الهدف والنهج الذي لا يقبل التفاوض ولا المساومة، ولولا تمسك الشعب وقيادته بهذه القضية لما استمرت ليومنا هذا، وهذا يعني أن الشعب وقيادته يرفضان جميع الحلول والمكاسب والمطامع والمخططات التي لا تخدم القضية، كما لا يُقبل التنازل حتى عن مبدأ واحد.

8. الذكاء السياسي وإدارة العلاقات

يمثل حركة حماس في خارج غزة عدد من الشخصيات القيادية، ممثلين لا مقررين، يديرون السياسة الخارجية للحركة وعلاقاتها مع الدول العربية والغربية، يترأس جدول أعمالهم القضية والشعب أولاً، لا يحيدون النفاق والتذلل، يعتزون بقضيتهم ويتفاخرون بها رغم رفض العديد من الدول العربية التعامل مع الحركة وتقبّلها، بل وصل الأمر إلى اعتقال قيادات الحركة ومنتسبيها الذين كانوا يقطنون في بعض البلاد العربية، وفوق كل ذلك، لم تتخذ الحركة موقفاً معادياً لأي دولة عربية وإسلامية، بل تعاود طرق الباب في كل فرصة لطلب المساندة والعون في الدفاع عن القضية الفلسطينية، وما زالت الحركة تناشد الدول العربية والإسلامية بالوقوف معها وتبنّي هذه القضية.

حرصت الحركة على تجنب الدخول في القضايا الداخلية للدول العربية وغيرها، وركزت على مكانة القضية الفلسطينية على الصعيد الدولي، ورحبت بكل من يساندها في قضيتها، وحظيت بدعم عسكري وتقني من قبل دول مختلفة، وبناء على ذلك لقت الحركة انتقادات واسعة نتيجة تعاملها مع دول غير مرغوب بها في المنطقة، ووضحت الحركة أن أساس كل علاقة مع أي دولة هو طلب العون في نضالها تجاه القضية الفلسطينية.

كما تقبلت الحركة جميع الانتقادات وعَزَت علاقتها مع الدول غير المرغوب بها في المنطقة إلى الضعف الذي تواجه الحركة في نضالها العسكري والسياسي، بالإضافة إلى الخذلان الذي لقيته من مختلف الدول العربية والإسلامية، لذا وجدت نفسها في حاجة إلى طلب العون ممن يقف معها في مسار نضالها، كما أكدت الحركة على أن التعاون والعلاقات مع جميع الدول قائم على حساب القضية الفلسطينية لا على حساب القضايا الداخلية أو الخارجية بين الدول.

بذلك استطاعت الحركة جلب دعم بعض الدول في مختلف المجالات، وحرصت على القرب من كل الدول العربية والإسلامية، وبقيت على موقف ثابت من قضيتها، رغم الرفض الذي لاقته من بعض الدول- وإن كان سببه هو العلاقة مع دولة معينة- والذي يعود سببه إلى الرفض التام لمشروع حركة المقاومة الإسلامية.

9. المعيّة الإلهية

عون الله فوق كل الأسباب والمعطيات، ومن كان مع الله كان الله معه، فالعقل البشري يعجز عن تفسير وربط الأحداث التي تدور في هذه البقعة المحاصرة، شعب لاقى كل أنواع البلاء والعدوان، شعب واجه أقوى الأسلحة الدولية، ومع ذلك يبقى الصبر سلواناً لهم، والرضا لأمر الله مبدؤهم، وطلب العون من الله غاية مطلبهم.

المتتبع للأحداث الأخيرة في غزة، يجد أن الشعب في قوة عظيمة، في إيمان كبير، مع صبر ورضا لا تسعه السماوات والأرض، آلاف الشهداء والجرحى، يسكنون الخيام في أشد وأبرد الأيام، لا يجدون ما يأكلونه، ومع ذلك عازمون على مواصلة الكفاح والنضال، يؤيدون رجال حركة المقاومة، ويدعون لهم بالثبات والنصر.

الشعب والحركة على قلب واحد، لا يمل أحدهم دون ملل الآخر، بيوتهم وأموالهم وأنفسهم رخيصة في سبيل الله، ينتظرون الشهادة دون خوف، يعتبرون العدوان سبب نيلهم الشهادة في سبيل الله.

كل ذلك لا يمكن تفسيره إلا بالعون الإلهي لهذا الشعب العظيم، والمدد والقوة التي منحها الله لهم في أيام البلاء، كل رجل حي يقابله شهيد أو جريح أو سجين، هذا قدر شعب غزة، أن يصطفيهم الله شهداء عنده، نتيجة صبرهم وصدقهم مع الله تعالى.

ختاماً

إن قضية الشعب الفلسطيني هي قضية الأمة الإسلامية، والمسجد الأقصى هو رمز مقدس وشعيرة إسلامية لكل مسلم، لذا وجب على كل مسلم أن يناصر القضية الفلسطينية بما يملكه من قوة وعلى قدر استطاعته، لأن القضية دينية شرعية قبل أن تكون قضية سياسية، وما زال الشارع الدولي يحاول تشويه الحقيقة وشرعنة احتلال اليهود للأراضي الفلسطينية.

اهتمامنا اليوم هو اهتمام بقضية الشعب الفلسطيني الذي يواجه الاحتلال وعدوانه منذ عشرات السنين، وهذا من واجبنا الديني، كما أننا نساند حركة المقاومة الإسلامية في نضالها ضد الاحتلال العدواني، وفي نصرتها للشعب الفلسطيني، والدفاع عن المقدسات الإسلامية، أما في علاقاتها وسياستها الخارجية فقد لا تناسب البعض من وجهة نظر خاصة أو عامة، لذا نحن مع الحركة ما دامت هي مع الشعب الفلسطيني في قضيته ونضاله وكفاحه ضد العدوان الإسرائيلي، وما دامت آخذة على عاتقها تحرير المسجد الأقصى من رجز الصهاينة المحتلين، والانتقام للشهداء والمعتقلين من الأطفال والنساء والشيوخ، والدفاع عن الأرض والعرض، كما أن الموقف الذي نصدح به اليوم هو بناء على الواقع الذي نعيشه ونشاهده، ولا شك أن الموقف يُبنى على معطيات ملموسة ومعروفة، ولا يمكن الحكم على توقعات وتخيلات مستقبلية لا أثر لها في اليوم الحالي، لأن القضية هي قضية الشعب لا قضية الحركة فقط، ونحن مع الشعب ومع كل من يقف بجانبه، والشعب باق لا يتغير.

في الختام، لا يمكن حصر غزة وشعبها ببضع صفحات وكلمات، لأن غزة تاريخ ماضٍ وما زال حاضراً ومشروع مستقبل طويل، إلا أن رغبة وجدتها في نفسي لأكتب فيها ما يدور في ذهني عن هذا الشعب الذي شغل القضايا الدولية، وأبين في تلك الصفحات عن تجربة غزة ورجالها في إدارة قضايا الأمة والنضال الحق ضد العدوان، راجياً من الله تعالى أن أكون موفقاً فيما كتبت.

بلال محمد خير خليفة

رجب 1445 – شباط 2024